العلامة السيميائيّة من التّأسيس الميتافيزيقي إلى التّأسيس الأنطولوجي عند "جاك دريدا".

The semiotic sign from the metaphysical foundation to the ontological foundation with Jacques Derrida

أ. مسعودي فاطمة الزهراء

جامعة عبد الحميد بن باديس،مستغانم،(الجزائر) ، fzmessaoudi@gmail.com

أ.د. بن سعيد محمد

جامعة أحمد بن بلة، وهرإنّ،(الجزائر)، bensaid-m@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/07/18 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 2021/12/25

ملخص: يسعى هذا المقال إلى الكشف عن استراتيجية **جاك دريدا** في نقده للعلامة سواء بمفهومها اللغوي عند **دو سوسير** أو بمفهومها الفلسفي التاريخي، القائمة على تفكيك منظومة الفكر الغربي المستندة إلى الأساس الميتافيزيقي الذي أرساه **أرسطو** قديما، و أدى إلى بناء ثقافة شمولية، تقوم على أحادية الفكر بدلا من التعددية، و على الإقصاء للآخر بدلا من الاعتراف به و التحاور معه. ويتجلى هذا التصوّر الميتافيزيقي الغربي بنويا، على المستوى اللساني، في تقديمه للكلام على الكتابة، و بعبارة أخرى في تقديمه لسلطة الحضور على الغياب، و لسلطة اليقين على الاحتمال، و لسلطة التشابه على الاختلاف. و هو الأمر الذي حدا بـ **دريدا** إلى بلورة تصوّر جديد يقوم على تفكيك الأسس الميتافيزيقية لفلسفة الحضور، و تبني وعي إنّطولوجي وجودي، ظاهراتي، يؤسس لطرح فلسفي سيميائي جديد، ينظر إلى العلامة في تجليها النصي، لا الصّوتي، بوصفها إنّتاجا لا نهائيا للعلّامات و ينبوعا لا ينضب لتعدد المعانيّ و اختلافها، و ما يتبع ذلك من تعدد الأفكار و الثقافات، واختلافها ضمن النص الواحد. و هو ما يسعى هذا المقال إلى الكشف عنه في ثنايا مغامرة **دريدا** الفلسفية .

الكلمات المفتاحية : جاك دريدا؛ العلامة ؛ الاختلاف ؛ الميتافيزيقا ؛الإنّطولوجيا.

Abstract:

Jacques Derrida's strategy in his criticism of the sign, whether in its linguistic concept of de Saussure or its historical philosophical concept, is based on dismantling the system of Western thought based on the metaphysical foundation laid down by "Aristotle" in the past, and that led to the building of a comprehensive culture, based on oneness of thought instead of pluralism. And on the exclusion of the other instead of acknowledging and dialogue with him. This Western metaphysical conception is structurally manifested, on the linguistic level, in its presentation of speech over writing, in other words, in its presentation of the power of presence over absence, the power of certainty over possibility, and the power of similarity over difference. This is what prompted Derrida to crystallize a new conception based on dismantling the metaphysical foundations of the philosophy of presence, and adopting an ontological, existential, and phenomenological awareness, which lays the foundations for a new semiotic philosophical proposition that looks at the sign in its textual, not vocal, manifestation as an endless production of signs. It is an inexhaustible source for the multiplicity of meanings and their differences, and the multiplicity of ideas and cultures and their differences within the same text. This is what this article seeks to reveal in the folds of Derrida's philosophical adventure.

Keywords: Jacques Derrida ; the sign;difference ; metaphysics ; ontology

***المؤلف المرسل**: مسعودي فاطمة الزهراء، **الإيميل**: fzmessaoudi@gmail.com

1. مقدمة:

يعلن **جاك دريدا Jacques Derrida** بوضوح، في حوار معه أجراه **كاظم جهاد** *، أنّ مشروعه الفلسفي في "التّفكيك " يدين بفضل كبير للفيلسوف **مارتن هيدغر Martin Heidegger** إذ يقول : " إنّ ديني لـ " هايدغر" هو من الكبر، بحيث

إنّه يصعب أن نقوم هنا بجرده و التحدث عنه بمفردات تقييمية أو كمية "[1]، ذلك إنّ **هيدغر** – كما يوضح – هو أول من قرع نهاية الميتافيزيقا *، و علّمنا – كما يضيف – كيف نسلك معها سلوكا "استراتيجيا" يقوم على التموضع داخل الظاهرة، وتوجيه ضربات لها من الداخل، و ذلك بالاشتغال معها شوطا من داخلها ثم مبادرتها بأنّ نطرح عليها الأسئلة التي تظهر أمامها من تلقاء نفسها عجزها عن الإجابة والتي تكشف عن تناقضها الداخلي. وعلى هذا النحو، ينبغي – في نظره – التعامل مع موضوع الميتافيزيقا، ذلك أنّ الميتافيزيقا لا تمتلك تخوما واضحة، و لا دائرة محددة المعالم حتى يتم ضربها من الخارج، فالمسألة – كما يؤكد **دريدا** – هي مسألة انتقالات موضعية، ينتقل السؤال فيها من طبقة معرفية إلى أخرى، ومن معلم إلى آخر حتى يتصدع الكل. ثم يسمي هذه العملية بـ " التّفكيك " [2].

التّفكيك، على هذا النحو، هو التدمير بمصطلح **هيدغر**، و المقصود بذلك هو محاولة التشكيك الفلسفي في جميع نظم المعرفة السابقة المحتكمة إلى المقولات الميتافيزيقية (مبدأ الهوية و مبدأ عدم التناقض و مبدأ الوسط المرفوع)* وصولا إلى هدمها وتدميرها، و الاستعاضة عنها بالتأسيس لمبادئ من قبيل التعقيد والوساطة والاختلاف، و هي مبادئ تخالف القواعد المنطقية للعقل التي أرساها **أرسطو**، وانبنى عليها من بعده الفكر الكلاسيكي برمّته. و يشير **عبد العزيز حمودة** إلى هذا التوافق والتداخل بين منظور **دريدا** ومنظور **هيدغر** في تبني الطرح نفسه إزاء مسائل عديدة، من أهمها فكرة التدمير، إذ يقول مفصلا جوانب التلاقي بينهما: " الواقع إنّ بعض الأفكار الأساسية لتفكيك دريدا مثل المعرفة و اللّغة، الحضور و الغياب، لانهائية الدلالة، رفض الثوابت و القراءات المعتمدة، و غياب المركز الثابت للمعرفة، و التناص، و فوق هذا و ذاك مفهوم التدمير ذاته، تتطابق مع فلسفة **هيدغر** التأويلية بصورة تتخطى حدود المصادفة أو تواتر الفكر " [3]. و هو أمر يؤكده **دريدا** نفسه – كما أشرنا إلى ذلك سابقا – و يدل على تأثر واضح بالفكر الهيدغيري الوجودي. و يؤكد **جون إليس John Martin Ellis** عدم أصالة أفكار **دريدا** الفلسفية إلا من حيث ابتداع الصيغ و المصطلحات الموارية لإثارة المتلقي و استقطابه [4].

2. استراتيجية التّفكيك عند دريدا :

تقوم استرتيجية **دريدا** – كما يشرحها جون **ليتش John Lechte** في تفكيك منظومة الفكر الغربي المستندة إلى الأساس الميتافيزيقي على نقد قوإنّين هذا الفكر التي لا تفترض مسبقا التماسك المنطقي و حسب، و إنّما تومئ إلى شيء عميق ومميز للمنظومة الميتافيزيقية السالفة الذكر، ألا و هو إنّ هناك حقيقة أساسية : مصدر أو أصل، تشير إليها هذه القوإنّين. والإقرار هذا التماسك المنطقي، فإنّ هذا الأصل، يجب إنّ يكون بسيطا (أي يكون مجردا من التناقض)، و متجإنّسا و متسقا (أي من الجوهر و الترتيب نفسه) و مماثلا لنفسه و ماثلا لها (أي منفصلا و متميزا عن كل توسط و وساطة). و هو ما يعني بوضوح إنّ هذه القوإنّين تستبعد بعض السمات، وهي التعقيد و الوساطة و الاختلاف، التي من شأنها أن تثير " عدم النقاء " أو التعقيد. ويتم هذا الاقصاء لهذه السمات على مستوى ميتافيزيقي عام. و هو المستوى الذي يتأسس فيه نظام كامل من المفاهيم التي تتحكم في تحريك الفكر الغربي من قبيل : المحسوس و المعقول، المثالي و الواقعي، الداخلي و الخارجي، الخيال و الحقيقة، الطبيعة والثقافة، الكلام و الكتابة، النشاط و الخمول ... [5] .

هذا يعني من منظور الفلسفة الغربية، افتراض وجود مدلول متعال أو حقيقة متعالية، أي الحقيقة التي تتجاوز نطاق الحواس و نطاق الحياة بمفرداتها المحددة، ذلك أنّ الحقيقة، وفقا لهذا التصوّر، تكمن خارج نطاق اللّغة والتاريخ والزمن، و لا تتلوث

بأيّ منها. و ثمة ما يوحي بهذا الاتجاه المثالي في تاريخ الفكر الغربي من وجود كائنات ميتافيزيقية تكرّس تعالي الحقيقة مثل **Eidos** أي الصورة، و **Arche** بمعنى الأول أو المبدأ الأول، أو الأزل، أو القدم، و **Telos** بمعنى الغاية أو النهاية أو الكمال، و **Logos** بمعنى الكلمة أو الفكر (أو الكلام و المنطق)، و **Matter** بمعنى المادة (أو الهيولى)، و **elan vital** أي الدافع الحيوي، إلى غير ذلك من الكائنات المطلقة، التي أضاف إليها كل من **دي سوسير Ferdinand de Saussure** و**هيدغر** كياناآخر هو اللّغة. و هو ما ينكره **دريدا** عليهما إذ يعدّ هذا المسعى منهما في الإعلاء من شأن اللّغة حتى تغدو "منزل الوجود" – كما يعبر **هيدغر** – هبوطا إلى الدرك الأسفل للميتافيزيقا. لذلك، يعمد **دريدا** إلى كبح جماح هذه المحاولة الدائبة للبحث عن اليقين مبيّنا أنّ هدف التّفكيكية هو تقويض أسس هذه المحاولات، و تفكيك الفلسفة و كسر طموحها إلى إدراك " الحضور " أو " المنطق " [6].

من أجل ذلك، يقوم **دريدا** بتحليل مبدإ الهوية الذاتية للكشف عن قصوره، مستدلا بالمثال الذي يسوقه **روسو Jean-Jacques Rousseau** عن عدم الاكتفاء الذاتي للطبيعة، فهي مع إنّها متماثلة مع نفسها إذ هي وفرة لا يمكن إضافة شيء إليها أو أخذه منها، إلا أنّها أحيانا تكون ناقصة، كأن لا يكون لدى الأم الحليب الكافي لإرضاع وليدها. و هكذا، يكشف **دريدا** أنّ الطبيعة المكتفية ذاتيا، حسب **روسو**، هي أيضا ناقصة. ومن هذا المنطلق، يمكن النظر إلى هذا النقص بوصفه خطرا على الاكتفاء الذاتي للطبيعة، أي على هويتها أو حضورها الذاتي. و في هذه الحالة، فإنّ المحافظة على الاكتفاء الذاتي للطبيعة يمكن تحقيقه بإضافة النقص إليها. غير أنّ هذا يتعارض مع منطق الهوية الذي لا يجمع بين الاكتفاء و النقص لأنّهما نقيضان، ذلك أنّ إحدى الصفتين فقط، لا كليهما، تكون أساس الهوية، و إلا سقطنا في التناقض، غير أنّه – كما يضيف **دريدا** – لا مفر، في الواقع، من تقويض الحضور الذاتي، لأنّ الملاحظ، بشكل أعم، إنّه في كل أصل "بسيط " ظاهريا جانب من " لا – أصل " يدخل ضمن شرط كينونته، و في كل معرفة بالوجود واسطة تتم بالوعي أو باللّغة [7].

و هكذا ترتبط مقولة الحضور الذاتي عند **دريدا** للوجود بنقيضها اللاحضور – كما يعرضها **ليونارد جاكسون Leonard Jackson** " فما هو موجود الآن لا يفهم إلا بالعلاقة مع ما هو مقصي الآن، وما كان أو سيكون موجودا في الماضي أو المستقبل. ولو أردنا أنّ نجد مقولة رئيسة، واحدة تغطي الاثنين، فلا بد أنّها ستكون مقولة الاختلاف (**Difference**) في المكان و الزمان. فنحن نبني تجربة المكان و الزمان بالعلاقة مع مثل هذه المقولة، مقولة الاختـلاف/ الإرجـاء/ **Difference) Deferral (** والـتي أسمـاها **دريدا** بالـ **Differance*** " [8].

من الجدير بالذكر، الإشارة إلى أنّ **دريدا** حاول رفع اللبس الذي أحاط بمفردة " **Differance** " إذ أكّد أنّها " لا تمثل كلمة و لا مفهوما، و إنّما تجمع سلسلة من المفهومات التي يتدخل كل واحد منها في لحظة حاسمة من العمل " [9]. ولذلك فهي مركزية في تحليل الخطاب ضمن المنظور التّفكيكي. وقد اجتذبت اهتمام قطاع كبير من الدارسين والمثقفين في حينها. ولذلك، وجب الوقوف عند دلالتها المزدوجة، إذ هي تجمع – كما أشرنا آنفا – بين الاختلاف أي المغايرة، والإرجاء أي التأجيل أو الإحالة. لكن ما المراد بهما عند **دريدا** ؟

3. فلسفة الاختلاف عند دريدا :

لعلّ **دريدا** اقتبس هذا المفهوم، مفهوم الاختلاف من **هيدغر**، من مقالة له موسومة بـ " **الهوية والاختلاف** " حيث هاجم فيها **هيدغر** مبدأ الهوية الميتافيزيقي في الفكر الغربي، وكشف أنّ الصيغة الشهيرة : أ= أ، هي تحصيل حاصل، ليقلب الصيغة

إلى أ هو أ، فيجعل التوسط الداخلي للفكر (الهو) هو المحدد لكينونة الموجود، ذلك أنّ الفكر و الكينونة مختلفان [10]، ولا بدّ للفكر من أنّ يتوسّط بين الكينونة والموجود لمطابقة الذات مع نفسها. ويعبر الانتماء المتبادل أي (أ هو أ) بين الفكر الكينونة عن نفسه من خلال اللّغة. وهو ما يشير إليه **هيدغر** بقوله : " إنّ التفكير في انبثاق الكينونة الخاصة كتملّك متبادل هو عمل من أجل بناء هذا المجال في ذاته كمجال حي نابض. و أدوات هذا البناء التي لا تستند إلا إلى ذاتها، يتلقاها الفكر عبر اللّغة لإنّ اللّغة و في غضون هذا البناء الداخلي للتملك هي النبض الأكثر رهافة و هشاشة، لكنه أيضا النبض الذي يعمل على حفظ كل شيء، فبقدر ما تكون كينونتنا متوقفة على اللّغة تكون إقامتنا ضمن التملك المتبادل "[11].

إنّ الاختلاف بين الفكر والكينونة يؤسّس، في نظر **هيدغر**، وحدة الهوية عبر وسيط ظاهراتي (فيمينولوجي) هو اللّغة، وذلك بالتعبير عن الهوية كما يأتي : (أ هو أ)، فالاختلاف شرط للهوية كما يريد إنّ يقول. و لعلّ **دريدا** استلهم هذا المبدأ الفلسفي، الإنساني من **هيدغر** ليتخذه منطلقا لنقد فكرة الاختلاف عند **دي سوسير** والبنيويين بشكل عام، في طريقة معالجتهم للنظام الاختلافي للغة. فقد لاحظ **دريدا** أنّ **دي سوسير** " تجشم [...] عناء كبيرا لبيان أنّ اللّغة في أعم أشكالها يمكن أن تُفهم باعتبارها نظام اختلافات من دون حدود إيجابية " [12]، ذلك أنّه أقام هذا الاختلاف في دراسته للغة على أساس صوتي، و لم يعن البتة بدراسة اللّغة المكتوبة لأنّ هذه تعدّ، في نظره، ثانوية بالنسبة إلى حضور الصّوت، ليكرّس بذلك التقليد الميتافيزيقي في تقديم الكلام على الكتابة .

4. نقد تصوّر دي سوسير للعلّامة :

إنّ مفهوم العلامة– كما يبيّن **دريدا** – يتضمن في داخله تمييزا بين الدّال والمدلول حتى وإن زعم **دي سوسير** أنّهما وجهان لعملة واحدة [13]، وهو تمييز يمكن إدراك دلالاته الفلسفية في ضوء التصوّر الميتافيزيقي الغربي لـ " الحقيقة " أو " اللوغوس " الذي ينطوي معناه على نوع من " الصلة الجوهرية بالوحدة الصّوتية " [14].و يستند **دريدا** في توثيق تصوّره لأصل اللوغوس إلى ما ذهب إليه **أرسطو** من" إنّ الأصوات التي يصدرها الصّوت البشري هي رموز لأحوال النفس، أما الكلمات المكتوبة فهي رموز للكلمات التي يصدرها الصّوت البشري ". و من هنا ارتبط الصّوت البشري بوصفه منتجا للرموز الأولى – في المنظور الفلسفي الغربي – بعلاقة قرابة جوهرية و مباشرة بالنفس. وباعتبار الصّوت البشري منتجا للدال الأول [الصّوت]، فهو لا يكون مجرد دال بين آخرين، إنّه يدل على حالة النفس التي يعبّر عنها أو يعكس الأشياء بواسطة تشابه طبيعي. كما أنّ هناك علاقة ترميز اصطلاحية بين النفس واللوغوس، تتمثل أولا في نظام الدلالة الطبيعية أو الكونية، المعبر عنه باللّغة المنطوقة، وتتمثل ثانيا في نظام اصطلاحي هو اللّغة المكتوبة. [15]

وفقا لهذا المنظور الميتافيزيقي في النظر إلى العلامة، يكون الصّوت في جميع الأحوال شديد القرب من المدلول، سواء تحدد هذا المدلول بوصفه معنى (نفكر فيه أو معيش) أم بوصفه شيئا يخص ما يربط الصّوت البشري بالنفس ربطا لا فكاك منه، أم يربطه بفكرة المعنى المدلول، أم حتى بالشيء نفسه. و عليه، فإنّ كل دال، وفي مقدمة ذلك الدّال المكتوب، هو دال مشتق [ملحق]، ويظل دائما دالا تقنيا و تمثيليا و ليس له أي قيمة . وهذا الاشتقاق – كما يؤكد **دريدا** – هو بمثابة الأصل لفكرة الدّال. [16]

لذلك، صرف **سوسير** جلّ اهتمامه إلى التركيز على المقابلة بين الدّال والمدلول مبينا اعتباطية العلامة ومرجّحا أهمية المدلول على الدّال، على اعتبار إنّ وظيفة الدّال هي رمزية أساسا ممثّلة في قدرته على الإحالة إلى المدلول وحسب، و هو اتجاه لدى **سوسير** يوحي بإنّ ثمة مفاهيم حاضرة أي موجودة خارج الألفاظ [في تساوق مع النظرة الميتافيزيقية الغربية في تكريسها للثنائية من جهة، وانتصارها للمدلول، (الحقيقة المتعالية) من جهة أخرى]، في حين كأن ينبغي عليه – في نظر **دريدا** – أن يعنى أساسا بالتركيز على الكلمة (**Gram**)، وأوجه التشابه بين الكلمات (**Traces**)، الاختلاف بينها (**Differance**)[17]، أي على الكتابة بدلا من الصّوت، ذلك إنّ مفهوم الكتابة –كما يحدده **دريدا** – يتجاوز اللّغة و يحتويها في الوقت نفسه [18].

5. الكتابة بوصفها إنّتاجا للمعنى :

الكتابة على هذا النحو، كما يصفها **دريدا**، تتميز بكونها خارجة عن الكلام بما أنّها ليست "صورته" أو "رمزه"، و داخلة في الكلام الذي هو في حد ذاته كتابة [19]. لذلك فهي تتجاوز اللّغة بوصفها حضورا للصوت و تحتويها في الوقت نفسه، إذ يحيل " مفهوم الخط حتى قبل إنّ يرتبط بالخدش وبالنقش أو بالرسم أو بالحرف أو بدالّ، يحيل بوجه عام إلى دال آخر يكون هو مدلولا له " [20]. و هي عملية في إنّتاجها للمعنى تقوم أساسا على مفهوم الأثر، فكل دال يتضمن أثرا من دال آخر، وكل نص، بناء على ذلك، يحمل أثرا من نص آخر. و عليه، فإنّ تولّد المعنى لا يكون – في نظر **دريدا** – حصيلة التقابل بين الدوال على المحور الاستبدالي في إحالة كلمة حاضرة إلى كلمة غائبة – كما يذهب إلى ذلك **سوسير** – بل إنّه يكون نتيجة " إحلال اللعب الحر للدوال محل التضاد الثنائي. فالدّالات (الكلمات) لا تكتسب دلالتها [....] من تجمعها داخل تقابلات ثنائية يحدد فيها معنى كلمة غائبة معنى كلمة أخرى حاضرة في النص، و لكنها تكتسب معناها – المراوغ و الغامض والمتخفي – عن طريق لعب المدلولات و حركتها الحرة " [21]. و هو مفهوم يؤسس للاختلاف مادامت دائرة التأويل التي تقود من دال إلى آخر غير نهائية، و بالتالي فإنّ الدّال لا يفتأ ينتج سلسلة من الدوال إذ كل دال يفضي إلى دال آخر مغاير في المعنى، و ذلك باختلاف القرّاء لهذا الدّال، و في ضوء أفق توقعاتهم*. ومن هنا، يظل المعنى مؤجلا، إذ مع كل قراءة يبزغ معنى جديد، مختلف.

هكذا يتجاوز **دريدا** مبدأ التعارض الذي استند إليه "سوسير " والبنيويون ،متأثرين في ذلك بالثنائية الميتافيزيقية اليونانّية و بالفكر الهيجيلي، في تصوّر العلامة، و يقترح بدلا من المبدإ التقابلي، التعارضي، فكرة اللعب الحر للدوال إذ " كانت أول حركة لـ **دريدا** هي إدخال كلمة لعب **Play** وإحلالها محل كلمة مثل تعارض **Contrast**. و [عليه] يصبح لعب الاختلافات الآن هو مصدر المعنى. إنّ اللعب لم يعد مجرد تعارضات معينة، لكنه أصبح دون حدود ولانهائيا " [22].

هكذا، يقدّم **دريدا** مبدأ الاختلاف بديلا عن فكرة التّعارض أو التّقابل التي تؤسّس للحضور، الحضور " الحي " للدال، المطابق لذاته، المقصي لغيره من الدوال، في حين يكمّل الاختلاف هذا النقص الموحش للدال، في صيرورته الدلالية باستدعائه لسلسلة أخرى من الدوال تختبئ وراء ظلاله عند كل قراءة جديدة، تستلهمه داخل فضاء الكتابة، فالقارئ من منظور تفكيكي هو من يعيد كتابة النص و يشارك في إنّتاج معناه و قيمته على نحو إبداعي في ضوء أفق التوقع –كما أشرنا إلى ذلك من قبل

5. خاتمة :

نخلص مما سبق إلى إنّ مفهوم الاختلاف – كما أراده **دريدا** – هو" مفهوم مقتصد، يحدد عملية المغايرة و التأجيل أو الإرجاء في آن واحد معا " [23]. و عليه، فالاختلاف، يهذا المعنى، يتعارض مع الهوية الذاتية والتماثل والحضور ،إنّه يحيل دائما إلى الآخر، و بعبارة أخرى، يمكن القول أنّه يعني أنّ " الأصل مؤجل، و المختلف يحيل دائما إلى غيره " [24]، و هو مفهوم –

كما نلاحظ – يسعى إلى تقويض "اللوغوس"، أي القول بوجود حقيقة متعالية أو مدلول متعال خارج النص، إذ لا وجود لأصل أو مصدر يتعلق بالمعنى خارج النص، و لذلك يبقى الأصل مؤجلا، و معه يتأجل المعنى. و إذا كان ثمة كينونة، فليست إلا كينونة الاختلاف، ذلك إنّ " كل الدوال هي ثمرة اختلافية داخلية في النظام، وهي تحمل أثر الدوال الأخرى "المسجّلة" فيها. وليس لأي دال إنّ يتعالى عن النظام. (ليس هناك في كل الجهات، إلا اختلافات الاختلافات وآثار الآثار) بلا مركز وبلا بداية " [25]. فالدّال ينطوي في أصل كينونته على ما يشبهه و يختلف معه، و هو ما يقوم التناص دليلا عليه، و تسعى نظريات التلقي و التأويل إلى إثباته.

إنّ إنجاز **دريدا** على صعيد تحرير الدّال من أسر البنية أو لنقل من أسر ميتافيزيقا الحضور باستنطاق كرونولوجي لأهم النصوص المتمحورة حول اللوغوس بوصفه الكلمة أو الفكر (أو الكلام و المنطق) بدءا بالنص الأرسطي مرورا بالجدلية المثالية لـ**هيجل**/ **Hegel** و رومانسية **روسو** ظاهراتية **هوسرل** / **Edmund Husserl** ووجودية **هيدغر** ولسانيات **دو سوسير** المؤسسة للطرح البنوي، يعدّ كل ذلك إنجازا ثوريا لاستهدافه الأسس الفلسفية للطرح الميتافيزيقي، و لأنه فتح آفاقا رحبة للمقاربة الأنطولوجية للدال مستلهما في الوقت نفسه فلسفة **هيدغر** في التأسيس الوجودي لمبدإ الاختلاف والمنظور السيميائي لـ**بيرس** في تأكيده للصيرورة الدلالية للعلامة أو الممثل، وإسهامات أقطاب نظريات القراءة و التأويل والتلقي.

غير أنّ أفكار **دريدا**، على الرغم من ثوريتها و جدة طرحها إلا أنّه يمكن وصفها بأنّها تنتظم ضمن نزعة معاداة المعقولية، معقولية العالم و الحياة الإنسانية، التي تنامت في أوروبا بعد الحرب العالمية الثإنّية، وتعاظمت معها نزعة الشك في منظومة القيم المشكّلة لليقين الميتافيزيقي، و منها التشكيك في وجود حقيقة مطلقة متعالية و منفصلة عن إنّطولوجيا الوجود في الزّمان والمكان كالانفصال الميتافيزيقي للمدلول عن الدّال على الرغم من القول بخلاف ذلك من منظور سوسيري. لذلك سعى **دريدا** إلى تحطيم سلطة العلامة أو ما سماه بمركزية الصّوت لإفساح المجال لتعايش المدلولات ضمن فضاء الاختلاف بعيدا عن يقين الهوية الذاتية.

مع أنّ **دريدا**، في إعلائه من شأن قيمة الاختلاف، يدين بالفضل إلى **هيدغر**، كما ألمعنا إلى ذلك سابقا، إلا أنّ تميز إسهامه في هذا الصدد هو في التأكيد على الإحالة التي يتضمنها الاختلاف، الإحالة إلى الآخر، إلى العلّامات الأخرى التي تنطوي عليها العلامة في ذاتها، في حين اكتفى **سوسير** بوصف الاختلاف محددا لهوية العلامة في ذاتها على المستوى الاستبدالي وبالنسبة لغيرها على المستوى الأفقي ضمن منظور بنوي محض. و من هنا كان للطرح التّفكيكي قيمته الإحالية ضمن الدّال ذاته (النص ذاته) بمساءلته باستمرار للبوح بخباياه للقارئ. والنشاط التّفكيكي على هذا النحو هو قراءة لا تنتهي، وهو أي النشاط التّفكيكي، في محاولته تفجير النص، و تحريضه ضد نفسه، يدفعنا إلى أن " نشك في المقابلات ونستجوب التسلسلات ونسجل التناقضات و التعارضات "[26]، كما يحثنا من خلال منطقه الشكي إلى " تعرّف فضاء توتري حيث تظهر المعاني وتتوارى بلا توقف " [27].

والتّفكيكية إذ تنزع نحو تأكيد الاختلاف متجليا فيما يسميه **دريدا** " الكتابة الأصلية " *، فإنّها تستهدف من خلال تقويضها لمركزية الصّوت ضرب المركزية الغربية التي تقدم نفسها بوصفها الأصل، و ما عداها بوصفه هامشا تابعا لها، وهو ما كان يحدو **دريدا** في نضاله الفلسفي ضد مركزية الحضور في الفكر الغربي، أن يلفت النظر إلى الآخر، فالحقيقة ليست معطاة سلفا

و لا تستأثر بها ثقافة دون أخرى، وإنّ القبض عليها مستعص، و ليست ملك أحد، إذ لا مؤلف لها، ذلك إنّها مشاع في النص تكشف عن مدلولاتها النسبية في تضاعيف النص ذاته الذي يعيد جمهور القراء كتابته باستمرار دون أن ينضب ينبوعه الدلالي .

يرى **فنست ليتش / Vincent B. Leitch** إنّ التّفكيكية تعدّ أنّ كل القراءات هي خطأ قراءات بالضرورة أو [إساءة قراءة]، ذلك إنّ القراءة هي عملية تغيير للحقيقة و ليست نقلا لها، و بالتالي لا يمكن أن تكون هناك قراءات صحيحة أو موضوعية، بل مجرد قراءة أقل أو أكثر حيوية وإثارة للاهتمام [28].

و هذا يعني، من منظور وجودي، تفكيكي، عدم الوثوق بأي قراءة، و معها ينتفي اليقين المعرفي، وتصبح أية قراءة على هذا النحو بلا معنى، إذ لا وجود لمعنى مراد، إنّما المعنى هو ما يتلقفه القارئ ليس إلا، و لا اعتداد بقصدية المؤلف. و إذا كان الأمر كذلك، فما جدوى المنهج النقـدي وما جدوى العلوم اللسانية والإنسانية و المنطق في مقاربة النصوص ؟ وحينذاك ندخل في خضم من الفوضى التّفكيكية، فوضى المعاني المتبعثرة والمتناقضة التي لا يقر لها قرار، و لا تحتكم للمعايير والتقاليد الأدبية ولا يتسع لها حتى النص ذاته.

لم يكن الطرح التّفكيكي على المستوى النظري منطقيا لأنّه يقول بلانهائية الدلالة، أوعلى المستوى الإجرائي منهجيا إذ لم يقدم نموذجا إجرائيا، كما هو الحال مع نموذج **غريماس / *Algirdas Julien Greimas*** مثلا، إلا ما اقترحه **بارت** في مقاربته النصانّية من الشفرات الدلالية، التي يعدها مداخل للمعنى، غير أّها مداخل محدودة، قد لا يستجيب لتنويعاتها كل نص، و هي لا تحفل في النهاية إلا بالجانب الدلالي و بفعالية القارئ، في استبعاد واضح للمؤلف و لخصوصيات النص الأسلوبية .

6.مراجع البحث:

أ/الكتب:

- **العربية :**

1. حمودة. عبد العزيز، المرايا المحدبة من البنوية إلى التّفكيك، سلسلة عالم المعرفة، العدد 232، إصدار المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، أفريل 1998.
2. محمد عنانيّ، المصطلحات الأدبية الحديثة، ط. ثالثة، 2003، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمانّ، القاهرة

- **المترجمة:**

3. جاكسون. ليونارد، بؤس البنيوية، ترجمة ثائر ديب، دار الفرقد، دمشق. ط.ثانّية، 2008
4. دريدا. جاك، في علم الكتابة، ترجمة إنّور مغيث و منى طلبة،، عن المركز القومي للترجمة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط. ثانّية، 2008
5. دريدا. جاك، الكتابة و الاختلاف، ترجمة كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط. ثانّية، 2000
6. ليشته. جون، خمسون مفكرا أساسيا، ترجمة فاتن البستانيّ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط. أولى، 2008
7. مج. من المؤلفين، بحوث في القراءة و التلقي، ترجمة محمد خيرالبقاعي، مركز الإنّماء الحضاري، حلب، سوريا، ط. أولى، 1998.
8. مارتن هايدغر، الفلسفة، الهوية و الذات، ترجمة محمد مزيانّ، ط. أولى، 2015، منشورات الاختلاف، الجزائر.

ب/ المعاجم :

9. المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، بدون ط. ت. 1983

7. هوامش البحث:

* "كاظم جهاد هو " مترجم كتاب دريدا : " الكتابة و الاختلاف " .

1 – جاك دريدا، الكتابة و الاختلاف، ترجمة كاظم جهاد، ط. ثانيّة، 2000، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ص. 47

* الميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة) اسم لكتاب أرسطو، يأتي في ترتيبه تاليا كتاب الطبيعة. و تعني عند أرسطو علم المبادئ الأولى و العلّل الأولى، و هي عند ديكارت : معرفة الله و النفس، و عند كإنّط : مجموعة المعارف التي تتجاوز نطاق التجربة و تستمد من العقل وحده، و عند كونت : معرفة بين اللاهوت و العلّم الوضعي تحاول الكشف عن حقيقة الأشياء و أصلها و مصيرها، و عند برجسون : معرفة مطلقة نحصل عليها بالحدس المباشر. (ينظر المعجم الفلسفي، بدون ط. ت. 1983، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ص. 197 – 198)

و يعرفها ليونارد جاكسون " بإنّها " دراسة المبادئ الجوهرية التي تتحكم بكل كينونة و كل بحث فلسفي " ينظر ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية، ترجمة ثائر ديب، ط.ثانيّة، 2008، دار الفرقد، دمشق، ص. 243

2 – ينظر جاك دريدا، الكتابة و الاختلاف ،المرجع السابق، ص. 47

* هي مبادئ مشهورة في تاريخ الفلسفة، تعزى إلى أرسطو، و إذا أضفنا إليها مبدأ السببية الأرسطي أيضا، فإنّ المقومات الأساسية للفكر الميتافيزيقي تكتمل، و لعلّ محاولة " دريدا " لهدم هذه الصروح العقلية، المنبنية على اليقين المعرفي، قائمة على تبني مبدأ الشك في اليقينيات الكلاسيكية، و من ثم في كل ما يلحقها من تقاليد فلسفية. و لعلّ هذه المحاولة الفلسفية متأثرة إلى حد كبير بالنهج الوجودي للشك الهيدغيري في أسس المعرفة السابقة، و يجدر بنا إنّ نشير ههنا إلى إنّ الهيجيلية نفسها، و من بعدها الماركسية عمدتا إلى نسف المقولات الميتافيزيقية بتبني مفهوم الجدلية، القائم على مبدإ التناقض الذي يحكم في نظرهما صيرورة الاشياء في عالم الفكر بالنسبة إلى الأولى، و عالم المادة بالنسبة إلى الثإنيّة. و من الواضح بإنّ مبدأ التناقض يتعارض مع مبدإ السببية الذي يقوم عليه نظام المعرفة و معقولية العالم. و لتوضيح المراد بالمبادئ المنطقية للعقل، فقد اعتمدنا على المعجم الفلسفي لمجمع اللّغة العربية بالقاهرة في شرح هذه المبادئ كما يأتي :

1- مبدأ الهوية، و معناه إنّ الموجود هو ذاته دائما، فلا يختلط به غيره و لا يلتبس به ما ليس منه، [و يقابله التعقيد عند دريدا]

2- مبدأ عدم التناقض، و مؤداه إنّه لا يمكن إنّ يكون الشيء في إنّ واحد موجودا و غير موجود، [و يقابله الاختلاف عند دريدا]

3- مبدأ الوسط المرفوع، و مؤداه إنّ القضيتين المتناقضتين لا واسطة بينهما، و يسمى أيضا الثالث المرفوع، [و تقابله الوساطة عند دريدا]

ينظر المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص. 165، 166

3 – عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، سلسلة عالم المعرفة، العدد 232، إصدار المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ص. 263

4 – ينظر المرجع نفسه، ص. 258

5 – ينظر جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا، ترجمة فاتن البستاني، ط. أولى، 2008، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص. 222

6 – ينظر محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة، ط. ثالثة، 2003، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمإنّ، القاهرة، ص, 135، 136

7 – ينظر جون ليتش، المرجع السابق، ص. 222، 223

* هو مصطلح صاغه دريدا عام 1968 في ضوء نظرية سوسير و البنويين حول اللّغة –كما يشير إلى ذلك جون ليتشه – (ينظر المرجع نفسه، ص. 223)، و ذلك يتحويل (e) في المفردة الفرنسية (Difference) إلى (a) لتصبح (Differance). و لا يكاد يبين الفرق بينهما عند النطق بأحدهما، و هو نفسه أي دريدا يتعمد ذلك لضرب مركزية الصّوت في الثقافة الغربية لتحييد أولوية الكلام لصالح مفهوم الكتابة. فالفرق بين الكلمتين لا يتضح إلا عند الكتابة ليتأسس بناء عليه مقهوم جديد للمصطلح يقوم على تضمن معنيين اثنين له، هما الاختلاف من جهة، و الإرجاء من جهة أخرى.

8 – ليونارد جكسون، مرجع سابق، ص. 246

9 – جاك دريدا، الكتابة و الاختلاف، مرجع سابق، ص. 53

10 – ينظر مارتن هايدغر، الفلسفة، الهوية و الذات، ترجمة محمد مزيإنّ، ط. أولى، 2015، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص. 29، 30

11 – المرجع نفسه، ص. 38

12 – جون ليتشه، المرجع السابق، ص. 223، 224

13 – ينظر جاك دريدا، في علم الكتابة، ترجمة إنور مغيث و منى طلبة، ط. ثانيّة، 2008، عن المركز القومي للترجمة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ص. 73

14 – ينظر المرجع نفسه، ص. 72

15 – ينظر المرجع نفسه، 72

16 – ينظر المرجع نفسه، ص. 72، 73

17 – ينظر محمد عنانيّ، المرجع السابق، ص. 138

18 – ينظر جاك دريدا، في علم الكتابة، مرجع سابق، ص. 68

19 – ينظر المرجع نفسه، ص. 124

20 – ينظر المرجع نفسه، ص.125

21 – عبد العزيز حمودة، المرجع السابق، ص. 305

* يحتل مقهوم أفق التوقع في المنظور التّفكيكي أهمية خاصة في مقاربة المتلقي للنص فهما و تأويلا. غير أنّنا سنقدم تعريفا مبسطا لهذا المفهوم، و يعرّفه "ياوس" بأنّه يتكون من التجربة القبلية للمتلقي عن الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه النص الأدبي أولا، و من شكل الأعمال السابقة و تيماتها (موضوعاتيتها) ثانيّا، و من التقابل بين اللّغة الشعرية و اللّغة العملية، أي من التعارض بين العالم التخيلي و الواقع اليومي ". ينظر فرانّك شويرفيجن، نظريات التلقي، في " بحوث في القراءة و التلقي "، ترجمة محمد خيرالبقاعي، ط. أولى، 1998، مركز الإنّماء الحضاري، جلب، سوريا، ص. 35

22 – عبد العزيز حمودة، المرجع السابق، ص. 306

23 – ينظر جاك دريدا، الكتابة و الاختلاف، مرجع سابق، ص. 126

24 – ينظر جاك دريدا، المرجع نفسه ،هامش المترجم، ص. 126

25 – ينظر فيرنانّد هالين – شويرفيجن، من التأويلية إلى التّفكيكية، في " بحوث في القراءة و التلقي "، ترجمة محمد خيرالبقاعي، ط. أولى، 1998، مركز الإنّماء الحضاري، جلب، سوريا، ص. 22

26 – فيرناند هالين – شويرفيجن، من التأويلية إلى التّفكيكية، في " بحوث في القراءة و التلقي " ،المرجع السابق، ص. 23

27 _ المرجع نفسه، 24

* يقترح دريدا ضربا جديدا من الكتابة سماه الكتابة الأصلية، و هي التي تستمد منها كل العناصر الصّوتية و الكتابية. و هي ليست جزءا من الألسنية، و بالتالي فهي كتابة الاختلافات بوصفها أثرا، إنّها مفهوم يتضمن الكلام و الكتابة الأصلية. ينظر ليونارد جاكسون، المرجع السابق، ص. 264

28 – ينظر عبد العزيز حمودة، المرجع السابق، ص. 297